إلى أخي النازح إلى باريز !

للأستاذ علي الطنطاوي

« هذا الذي أقوله لأخي ، يقال لكل طالب مسلم يدرس في أوربة »
« ع »

يا أخي !

لما دخلت (مسابقة البعثة) أمّلت لك بالفوز لما عوّدك الله من التوفيق والمعونة ، وخفت عليك الخيبة لأن (الوزارة) لا تريد إلا مبعوثاً واحداً في (العلوم الرياضية) من سورية كلها ، وأنى لك أن تكون ذاك الواحد ؟

فلما ظهرت النتيجة ، وكنت أنت الناجح في (فرع الرياضة) ، وكنت الناجح في (الطبيعة) أيضاً ، حمدت الله على هذه المنة ، وذهبت أستعجلك بالسفر

ولما عزمت أعددت لك ما تريد وأنا فرح مستبشر مسرور

كنت مسروراً لأني أعلم أنك ذاهب تطلب العلم ، وتخدم الوطن ، وتقوم بالواجب

ولكن لم يكد يتحقق الأمر ، ويأزف الرحيل ، وأرى الباخرة الفخمة (ماريت باشا) رابضة حيال المرفأ (في بيروت) تسطع أنوارها وتتلألأ ، وألقى نظري على هذا البحر الهائل الذي يمتد في الفضاء أسود مثل الليل ، حتى يغيب في السماء ، أو تغيب فيه السماء ... لم أكد أرى ذلك حتى أدركت الحقيقة الواقعة ، وعلمت أنك مودع نازح ، فغلبت عليّ العاطفة ، وفاضت نفسي رقة وحناناً

لم أستطع أن أودّعك ، ولم أقوَ على رؤيتك وأنت في الباخرة ، ماخرة بك عباب اليمّ ، تنأى بك عني ، حتى تصير نقطة صغيرة على شاطئ الأفق ، ثم تنحدر إليه ، وتختفي وراءه ، وتختفي أنت معها ، وتصبح[1] في نظري عدماً ، لأني لا أحس لها وجوداً . .

والوداع — يا أخي — جامع آلام الحياة وأساسها ومصدرها ، وأشد ألوان الوداع وآلمها وأمرّها وداعٌ في البحر ، ذاك الذي لا يطيقه ذو قلب ..

ودعتك وداعاً عادياً ، ولبثت في مدرستي ألقى درسي وأنا هادئ الجوارح ساكن الطائر ، ولكن في القلب مني زلزلة ، وفي الأعصاب ناراً ...

حتى إذا عاد أخوك ناجي الذي صحبك إلى الباخرة فخبرني أنك سرت (على اسم الله) ، أحسست كأن قلبي قد هبط من هذا الزلزال كبناء هوى ، وأن هذه النار قد تركت أعصابي رماداً متطفئاً فسقطت على كرسي ... لا أدري فيم هذا الضعف ، ولا أحبه من نفسي ، ولكني أدري أني أتخيلك الآن وحيداً فريداً لا ترى حولك قريباً ولا صديقاً ، تطل من شرفة الباخرة فلا ترى إلا السماء والماء ، وقد أخذك دوار البحر فلم تجد معيناً ولا مسعفاً . وأتصورك في ذلك البلد الغريب الذي لا ترى فيه إلا وجوهاً تنكرها ، وأنت الذي لم يفارق أهله قط ، ولم يغب عن بيته ليلة ، ولم يسافر وحده أبداً ... فلذلك ما أحزن ، وفي ذلك أفكر

* * *

ولكنها — يا أخي — خطيئة تربيتنا الاتكالية . لو أن آباءنا عودونا ، ولو أنا عوّدناك على الحياة الاستقلالية الصحيحة ، وتركناك وأنت في الثانية عشرة تذهب وحدك وتعود وحدك ، وعودناك حمل التبعات وأيقظنا فيك شخصيتك ولم ندعها نائمة في شخصياتنا ، ودفعناك إلى استثمار مواهبك ولم نتركها معطلة ، لو فعلنا ذلك وأنت في الثانية عشرة لما خفت عليك السفر وحدك إلى باريز وأنت في طريق العشرين !

يا أخي .

إنك تمشي إلى بلد مسحور (والعوذ بالله) ، الذاهب إليه لا يؤوب ، إلا أن يؤوب مخلوقاً جديداً وإنساناً آخر غير الذي ذهب ... يتبدل دماغه الذي في رأسه ، وقلبه الذي في صدره ، ولسانه الذي فيه ؛ وقد يتبدل أولاده الذين هم في ظهره إذا حملهم في بطن أنثى جاء بها من هناك !

إي والله يا أخي ، هذه حال أكثر من رأينا وعرفنا (إلا من عصم ربك) ، يذهبون أبناءنا وإخواننا وأحباءنا ، ويعودون عداةً لنا ، دعاةً لمدنا ، جنداً لاستعمارنا ... لا أعني استعمار البلاد ، فهو هيّن لين ، ثم إننا قد شفينا منه بحمد الله أو كدنا ...

(١) تصبح بمعنى لا هو

وإنما أعنى استمار الرؤوس بالعلم الزائف ، والقلوب بالفنّ الداعر ، والألسنة باللغة الأخرى ، وما تبع ذلك من الارتستات والسينمات وتلك الطامات ، من المخدرات والخمور ، وهاتيك الشرور ...

فانتبه لنفسك واستعن بالله ، فإنك ستقدم على قوم لا يبالى أكثرهم العفاف ، ولا يحفل العرض . سترى النساء فى الطرقات والسوح والمعابر يعرضن أنفسهن عرض السلعة ، قد أذلتهن مدنية الغرب وأفسدتهن ، وهبطت بهن إلى الحضيض ، فلا يأكلن خبزهن إلا مغموساً بدم الشرف ، وأنت لا تعرف من النساء إلا أهلك ، مخدّرات معصومات كالدّر المكنون ، شأن نساء الشرق المسلم ، حيث المرأة عزيزة مكرّمة ، محجوبة مخدرة ، ملكة فى بيتها ، ليست من تلك الحطة والمذلة فى شئ ... فإياك أن تفتنك امرأة منهن عن عفتك ودينك ، أو يذهب بلبك جمال لها مزوّر ، أو ظاهر خدّاع . هى والله الحيّة : ملمس ناعم ، وجلد لامع ، ونقش بارع ، ولكنّ فى أنيابها السمّ ... إياك والسم !

إن الله قد وضع فى الانسان هذه الشهوة وهذا الميل ، وجعل له من نفسه عدوّا (لحكمة أرادها) ، ولكنه أعطاه حصناً حصيناً يعتصم به ، وسلاحاً متيناً يدرأ به عن نفسه ، فتحصن بحصن الدين ، وجرد سلاح العقل تُوَقّ الأذى كله ... واعلم أن الله جعل مع الفضيلة مكافأتها : صحة الجسم ، وطيب الذكر ، وراحة البال ؛ ووضع فى الرذيلة عقابها : ضعف الجسد ، وسوء السمعة ، وتعب الفكر ، ومن وراء ذلك الجنة أو جهنم ...

فان عرضت لك امرأة بزينتها وزخرفها فراقب الله ، وحكم العقل ، واذكر الأسرة والجدود ... لا تنظر إلى ظاهرها البراق بل انظر إلى نفسها المظلمة القذرة وماضيها الخبيث المنتن ، أتأكل من إناء ولغت فيه كل الكلاب ؟ ؟

يا أخى !

إن فى باريز كل شيء : فيها الفسوق كله ، ولكن فيها العلم . فان أنت عكفت على زيارة المكتبات وسماع المحاضرات وجدت من لذة العقل ما ترى معه لذة الجسم صفراً على الشمال (كما يقول أصحابك الرياضيون) ، ووجدت من نفعها ما يعلقك بها حتى ما تفكر فى غيرها . فعليك بها ، استق من هذا المورد الذى لا تجد مثله كل يوم . راجع وابحث وألّف وانشر ، وعش فى هذه السماء العالية ، ودعْ من شاء يرتعْ فى الأرض ، ويعش على الجيف المطرة ...

غير أنك واجد فى ثنايا هذه الكتب التى كتبها القوم المستشرقون عن العربية والاسلام ، وفى غضون هذه المحاضرات التى يلقونها ، عدواناً كثيراً على الحق ، وتبديلاً للواقع ، فانتبه له واقرأ ما تقرأ واصغ لما تسمع وعقلك فى رأسك ، وإيمانك فى صدرك . لا تأخذ كل مايقولون قضية مسلمة وحقيقة مقررة ، فالحق هو الذى لا يكون باطلاً ، وليس الحق ما كان قائله أوربيا فانظر أبداً إلى ما قيل ، ودع من قال !

* * *

ثم إنك سترى مدينة كبيرة ، وشوارع وميادين ، ومصانع وعمارات ... فلا يهولنك ما ترى ، ولا تحقر حياله نفسك وبلدك كما يفعل أكثر من عرفنا من روّاد باريس . واعلم أنها إن تكن عظيمة ، وإن يكن أهلها متمدنين ، فما أنت من سودان أفريقية ولا بلدك من قرى التبّت ... وإنما أنت ابن المجد والحضارة ، ابن الأساتذة الذين علموا هؤلاء القوم وجعلوهم ناساً ، أين الأمة التى لو حذف اسمها من التاريخ لأمض تاريخ القرون الطويلة صفحاً بيضا لا شيء فيها ، إذ لم يكن فى هذه القرون بشر يدوّن التاريخ تاريخه سواهم ... فمن هؤلاء الذين ترى؟ إنما هم أطفال أبناء أربعة قرون، ولكنّ أمتك بنت الدهر لما ولد الدهر كانت شابة ، وحين يموت الدهر تكون شابة ...

لا . لا أفخر بالعظام البالية ، ولا أعتز بالأيام الخالية ، ولا أذكر لك الماضى لتقنع به وتنام ، ولكن أذكره لك لأهز فيك نفسك العربية المسلمة ، لأستصرخ فى دمك قوى الأجداد التى قتلت وأحيت ، وهدمت وبنت وعلمت ، واستاقت الدهر من زمامه فانقاد لها طيعا ... إن هذه القوى كامنة فى عروقك ، قائمة فى دمك ، فليفُر هذا الدم وليثر ويضطرم تظهر ثانية وتعمل عملها

لا تقل : ما ذا يصنع طالب مثلى ضعيف فى أمة قوية ، فإن الأندلس المسلمة كانت بالنسبة لمصرها أقوى ، وكان روادها من طلاب الفرنجة أضعف ، ولكنهم استطاعوا على ضعفهم أن يضعوا (هذه القوة) التى تعجب بها أنت ، ويذوب فيها دين غيرك

وخلقه ... إن الدهر يا أخي دولاب ، والأيام دول . وإن في الشرق أدمغة ، وفي الشرق سواعد ، وفي الشرق مال ، ولكن ينقص الشرق العلم فاحمله إليه أنت وأصحابك ، وعودوا إلى الشرق شرقيين معتزين بشرقيتهم الخيرة العادلة ، كما يعتز الغربيون بغربيتهم الظالمة الطاغية . واعلموا أن مهمتكم ليست ورقة تنالونها ، قد تنال بالغش والاستجداء والسرقة... ولكن مهمتكم أمة تحيونها

يا أخي !

إذا وجدت واسعاً من الوقت فادرس أحوال القوم وأوضاعهم في معايشهم وتجارتهم وصناعتهم ومدارسهم ، وابحث عن أخلاقهم ومعتقداتهم ، على أن تنظر بعين الناقد العاقل الذي يدوّن الحسنة لتتعلمها ، والسيئة لتتجنبها . ولا تكن كهؤلاء الذين كتبوا عن باريز من أبناء العرب ، فلم يروا إلا المحاسن والمزايا ، ولا كأولئك الذين كتبوا عن الشرق من أبناء الغرب ، فلم يبصروا إلا المخازي والعيوب ، ولكن كن عادلاً صادقاً أميناً

وإياك وهذه الحماقة التي يرتكبها بعض الكتاب من الفرنجة حين يهرفون بما لا يعرفون ، ويقولون مالا يعلمون ، كهذا الأخرق الصفيق الذي عمل أطروحة موضوعها (الحج) قدمها إلى جامعة كبرى وهو يجهل العربية ، ولا يعرف أي كتاب من كتب المسلمين بحث في الحج ، وإنما جمع الأخبار من الصحف ومن أفواه العامة ؛ وكتب في نظام الريّ في النوطة ، وزعم أنه وفّى البحث وأتمّه ، وهو لا يعرف منه إلا ما خبره به ثلاثة فلاحين لقيهم في قرية ذهب إليها ، مع أن نظام الريّ في النوطة لا يكاد يعرفه في دمشق إلا نفر قليل... وذاك الذي كان معلماً أولياً في بلده فصار عندنا مدير دار المعلمين العالية ، فذهب مع طلابه إلى ظاهر دمشق ، فمشى ينظر على جانبي طريق (الربوة) هنا وهناك ... فوجد في الجبل أثراً للماء ، فقال : من أين جاء هذا الماء ؟ لا بدّ أن يكون جاء من بردى ، إذ لا ماء في دمشق إلا من بردى . فإذا تكون نتيجة (البحث العلمي) في هذه المسألة ؟ هي أن بردى كان يصل إلى هنا ... إذن فقد كان عرض بردى في الماضي أربعمائة متر ... وانطلق يقرر دائماً هذه الحقيقة !

* * *

وبعد يا أخي ، فاعلم أن أثمن نعمة أنعمها الله عليك هي نعمة الايمان ، فاعرف قدرها ، واحمد الله عليها ، وكن مع الله ترَ الله معك وراقب الله دائماً ، واذكر أنه مطلع عليك ، يعصمك من الناس ويُعيذك من الشيطان ، ويوفقك إلى الخير

وفي اللحظة التي تشعر فيها أن دينك وأخلاقك في خطر ، احزم أمتعتك وعد إلى بلدك ، وخلّ (السوربون) تَنْعِ من بناها ... وانفض يدك من العلم إن كان لا يجيء إلا بذهاب الدين والأخلاق ...

أستودع الله نفسك ودينك وأخلاقك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

علي الطنطاوي

فرصة لتحسين مركزك

دروس بالبريد بواسطة أساتذة اختصاصيين على أحدث الطرق المتبعة في المدارس والجامعات الغربية ، للحصول على الشهادة الابتدائية أو البكالوريا ، دراسة اللغة الأجنبية للتخصص في الصحافة والشعر والرجل وفن الروايات . الرسم والكاريكاتور . القانون والثقافة العامة . التجارة ومسك الدفاتر . الزراعة وفلاحة البساتين . الهندسة الميكانيكية والكهربائية وهندسة البناء ، والهندسة الصحية . الساحة والطرق والكباري . السكك الحديدية . البلديات . المقاولات . التنظيم . الناجم . الراديو . التليفون التلغراف . التجارة . الحدادة . السيارات . الخ ...

كتاب طريق النجاح في ٨٠ صفحة مقابل ١٠ مليمات طوابع بوستة فقط . قسيمة مجاوبة في الخارج . واكتب إلى مدارس المراسلات المصرية ١٠ شارع قنطرة غمرة مصر — تليفون ٥٠٣٥٩